من ذكريات العراق

قصة حقيقية

للأستاذ علي الطنطاوي

كان ذلك في الربيع الماضي في أمسية حلوة ، اقترحت فيها على صديقي أنور ، أن نركب زورقاً من هذه الزوارق الجميلة ، ذات المقاعد الوثيرة والوسائد البيض المحشوة بريش النعام ، فنجول ساعة في دجلة نشهد غروب الشمس ، ونستمتع بالتأمل في هذا النهر الذي يحمل في كل قطرة منه ذكرى خليفة أو مغن أو شاعر أو عاشق ، ويحفظ بين أحنائه أو في تاريخ لأجل عصر ذهبي نعمت في ظلاله البشرية . وكان صاحب زورقنا شيخاً لطيفاً ، جميل الطلعة ، رائع المشيب ، له على شيبه سذاجة طفل ، ونظرات ملك ؛ وكان حسن الحديث ، كثير النوادر ، حاضر الجواب . فسمعنا من حديثه المعجب المطرب ، ومال بنا الحديث إلى كل جميل ، حتى وقف بنا عند الكلام على دجلة ... فقال الشيخ :

أنتم لا تعرفون مادجلة ؟ عندكم منه هذا المنظر الذي يبدو من الجسر ؛ وقد تنتبهون إلى بناء الجسر وعوامانه التي يقوم عليها أكثر مما تنتبهون إلى النهر ! بل لقد تشغلكم عن هذا وذاك هذه السيارات التي تركب متنه بثقلها وأهوالها وأحمالها ، فيستجير منها الجسر ويئن ، ويضطرب ويميد ، فلا تحفل أنينه ولا تبالي اضطرابه ، ولا ترحمه ساعة من ليل أو نهار

قال أنور : لقد أنشئ الجسر لتمر عليه المها الفاتنات ، لا لتركبه هذه السيارات ...

— قال الشيخ : أما أنا فاني أرى في النهر عالماً : أرى فيه دنيا واسعة ، لاتدرون بها ياسكان القصور ، وقطان البر . أرى فيه النهر الذي يستيقظ مع السحر ، ليستقبل أول وفد من خيوط النور ، فيبسم له وترقص في استقباله أمواجه الصغيرة العابثة ، والنهر الذي تلتهب أمواهه في أشعة الهواجر من تموز وآب ، والنهر الذي يسكر من ريق القمر الذي يرتشفه في ليالي الصيف ... لك الله ياليالي بغداد ! .. فيشبه فتاة صغيرة تترنح نشوى ، والنهر الذي يحكي المقبرة الموحشة ، حين يمر في ليالي الشتاء المظلمة ، أسود كالحاً مرعباً ، والنهر الذي ينقلب ممرض غرام حين تسرح فيه زوارق المحبين من أهل بغداد ، مدينة الجمال والجلال ، ومعهم الأعواد والقيثارات ، ومعهم ...

— قال أنور : شراب أبي نواس !

— قال الشيخ : لست أدري ماشراب أبي نواس ! ولكن ماذا يعنيني اسمه ؟ أليس هو الذي يخلق لك من الشقاء سعادة ، ومن الفقر غنى ، ومن المزبلة عرشاً مكللا بالجواهر ، والذي يفتح الحناجر بأرق ماعرفت دجلة من الأغاني ، من أيام ...

— قال أنور : إسحق وإبراهيم

— قال الشيخ : ويعقوب ويوسف عليهما السلام فضحكنا لمقالته ، حين يظن اسحق الموصلي من الأنبياء ، وعاد الشيخ يقول :

— والنهر الذي ينقلب وحشاً كاسراً كاشراً عن أنيابه ، ويغدو (نمراً) فتاكاً ، حين يفيض الزبد على شدقيه ، ويفتح فمه المهول ليبتلع بغداد وأهلها ويقذف بهذه الاطنان من الحديد التي

تثبت الجسر قذف الصبي بكرته .

هذا هو دجلة الذى أراه أجلّ من البحر ، وما البحر ؟ ما ذلك الملح الأجاج من هـذا العذب الفرات ؟ أين البحر الذى تصطخب أمواجه وهو فى مكانه ، كالطفل الذى يخبط الأرض برجليه من العجز ، من هذا النهر الذى يجرى فى سكون ، يجرى دائماً وابداً ؟ آه متى بدأ هذا النهر سيره ، وإلى أين يمشى ؟ اما لطوافه نهاية ، اما لمسيرة غاية ؟ والله يابنى لقـد فكرت فى ذلك أكثر من ألف مرّة . إن هذا لعجيب ! فما البحر ؟ البحر الذي يضطجع على رمال الساحل مثل حوت ميت قد جرفته الأمواج ، وأين هو من دجلة الذى يجول فى الأرض كسائح عالمَ ، أو عاشق هائمَ ، يسير بين القصور ، ثم يتنزه وسط الحدائق ، ثم يمرّ على بساتين النخيل

فقاطعه أنور صائحاً : النخيل النخيل ... ألم تسمع ما قال المعرىّ ؟

وردنا ماء دجـلة خير ماء
وزرنا أشرف الشجر النخيلا

قال الشيخ : أى والله ، هو والله أشرف الشجر . لو رأيت ظلال النخيل فى دجلة الساكن ، الذى يبدو عند الغروب كأنه المرآة المجلوّة ! فاذا مل القصور والحدائق والنخيل ذهب يمشى وحيدا فى الصحراء . يادجلة ! ماذا فى نفسه من ذكريات ؟ لقد كان أمس يمشى فى ظلال الايوان المشمخر ، ثم عاد اليوم يمشى على أطلاله الموحشة . ولقد كان يبصر قصر المتوكل العظيم فى مرّ من رأى ، فرجع لا يرى إلا أنقاضا خالية فوق انقاض ... له الله كم يذكر وكم يتألم !

فقال أنور : آه لو كان دجلة شاعراً ...

قلت . أوليس على طرفى دجلة شعراء ؟ فكم ديوانا فى نظم دجلة ؟ أما لو كان دجلة جاريا فى أرض الفرنسيين أو الانكليز ، إذن للأوا به الدنيا شعراً

قال : هذا صحيح ، انا لا نعرف مقدار ما نملك . إنه لم يبق حادثة فى تاريخ فرنسا أو انكلترا ، ولا بقعة فى أرضهما إلا نظم فيها الشعراء ، وألف القصصيون ، ونحن نملك دجلة والنيل ولبنان ودمشق ، وعندنا تاريخ ثلاثة عشر قرنا ، يفيض بالبطولة والعظمة والمآسى والمباهج ، فماذا وصفنا وماذا ألّفنا ؟ لاشيء يذكر !

فتألمت وحزّت فى نفسى هذه الحقيقة ، فأحببت أن أبدّل مسرى الحديث ، فقلت للشيخ :

— ألا تخبرنا ما أمتع ذكرياتك فى هذا النهر ؟

فاهتز الشيخ ، وقال :

— تحب أن أحدثك عن أمتع ذكرياتى ؟ آه ... ماذا أذكر لك ؟ لقد قضيت سبعين سنة من حياتى أروح وأغدو فى هذا النهر ، منذ كان عمرى .. منذ كان .. لقد كنت دون العاشرة ، حينما جربت أن أمسك الجداف بيدى الصغيرة ، فكان أبى يشجعنى ويستثير حماستى ، ولم أخرج بعد ذلك من النهر . لقد شهدت فيه الخريف والربيع والصيف والشتاء ، وأيام الصحو وليالى المطر ، ورأيت كثيراً حكومات مختلفة وثورات وحروباً ، وركب فى زورقى آلاف مؤلفة من الناس ، فرأيت الغنى والفقير واليائس الذى يفر بآلامه إلى حضن النهر يلجأ إليه فى ضيقه ، ويديب ألمه فى جماله ، والعاشق الذى يبتغى الخلوة بمحبوبه بين الماء والسماء . ورأيت أشرافاً ومجرمين وكباراً وصغاراً ، وطربت وحزنت ، واستقبلت أولاداً وأحفاداً ، وودعت راحلين إلى حيث لا يعودون ... فمّ أحدثك ؟ وماذا أذكر لك ؟

وسكت الشيخ يفكر ، ثم ساح وقد علت وجهه ومضة ، خطف نورها على جبينه المجعد قال :

لقد عرفت ، لقد عرفت ... إنى مهما رأيت ومهما شاهدت فلن أنسى حادثة هى أعمق فى نفسى من كل ما مرّ علىّ من حادثات الليالى . إنها أمتع ذكرياتى ...

لقد كانت ليلة من ليالى الخريف ، وقد بكر البرد فاعتزل الناس النهر . ولم يبق لنا من عمل ، فلت بزورقى ، فانزويت حيال ذلك القصر أتقى زمهرير الليل . ألا ترى إلى هذا البناء الأحمر ؟

— قلت : البرلمان ؟

— قال : لقد كان فيه يومئذ مولانا الملك فيصل رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنانه ، فوقفت زورقى أنتظر رزق الله — حتى انتصف الليل — ولم يجىء أحد ، فتسرب الملل إلى نفسى فانطلقت أغنى ... وإذا أنا بشباك يفتح فوق رأسى ويبرز منه رأس . فسكت وتأملته فاذا هو رأس رجل مهيب قد عدا طور الشباب . فانتظرت أن يؤنبنى على أن أزعجته عن منامه بغنائى ، وهل يليق بمثلى أن يغنى تحت شبابيك الملك بعد نصف الليل ...

ولكنه لم يعتب ولم يلم . وإنما قال لى بلهجة حلوة :

— مساء الخير يا عمّ !

— قلت : مسّاك الله بالخير يا بنى . لا تعتب علىّ ، لن أغنى بعد الآن . لقد كانت خطيئة من الملل . ما ذا أعمل يا بنى ؟ دعها لله ...

— قال : لا . أبداً . بالعكس لقد سررتنى . إنى مصاب بالأرق

— فضحكت وقلت : وأنا والله كذلك ولكنى شيخ كبير والشيخ لا ينام . أما أنت فلا تزال شاباً

— قال : ولكنها الهموم ... هموم الحياة

— قلت : وما ذا تشتغل أنت هنا ؟

— قال : خادم . خادم لكل الناس ، وعندى عيال ...

— قلت : لعلك محتاج إلى مال؟ لا تفكر يا بنى. الرزق مقسوم . الذى لك سيأتيك

— قال : ولكن ... آه صحيح ! كله قسم ... الحمد لله

وأحسست كأن فى صوته نغمة حزن ألمية ، ففهمت أنه محتاج وأخذتنى الشفقة عليه ، وانتوبت والله يا بنى مساعدته ، (والبؤس يقرب بين الناس) فتلمست كيسى وجعلت أعد فلوسى فى الظلام ، فاذا أنا أملك ستة وتسعين فلساً

قلت : هيه ؟ ما اسمك ؟

قال : لك أن تدعونى عبد الله

قلت : يا عبد الله ، نحن إخوان فى الاسلام ، فلا تخجل منى ، خذ، هذه خمسون فلساً، انفقها على عيالك إلى أن يفرج الله وأنا آخذ منك عند ما أحتاج. لا تحمل همّا . الرزق على الله

فمد يده فأخذها ولم يقل شيئاً ، ولكنى رأيت الدمع ... أى والله رأيت الدمع يترقرق فى مآقيه

* * *

وانعقدت الصداقة بيننا وتوثقت ، فكان كلما أرق نادانى ، فأخرج رأسه من الشباك ، وطفقنا نتحدث ، فأبثه أحزانى ، وأنفض إليه وفاضى ، ويبثنى ويشكو إلى . ورأيته قد يسر الله عليه ، فكان يعطينى الدينار والخمسة والعشرة ، ثم يحتاج فيأخذ

منى ، ولكنى لم أكن أملك إلا عشرات من الفلوس فأدفعها إليه ، فيأخذها باسماً

وكنت مرة أناديه ، فما راعنى إلا شرطى نحيف الطلعة ، عابس باسر ، يقبل على وشواربه ترقص من الغضب، وصوته يغلب صوت الزورق البخارى الذى يقلّه ، قال :

— أتصرخ أمام قصر الملك أيها الوغد ! إذهب معى حتى أريك

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى دائرة الشرطة

قلت : إنى فى عرضك. أنا فى جوارك. عمري ثمانون وما دخلت دائرة حكومة ، أفأدخل الشرطة مثل المجرمين بعد هذه الشيبة ؟

قال : إخرس (زمال) إمش معى بلا كلام فارغ

وجذبنى ، فجعلت أبكى ولم أجرؤ على نداء عبد الله كيلا يطرد من عمله بسببي ، فأكون أنا الجانى عليه ؛ ولكنه سمعنى وفتح شباكه ، فلما رأيته خفت عليه ، فجعلت أغمز بعينى وأشير إليه أن يدخل فلا يفهم ، فقلت له : أدخل

فانتبه الشرطى وقال : من هو الذى تخاطبه ؟

قلت : لا أحد

قال : والله لتقولن ، أو لأفعلن بك الأفاعيل

فخشيته والله على نفسى ، فقلت : أكلم عبد الله خادم القصر

فابتسم ابتسامة منكرة ، ثم حرّق الأرض علىّ وصرخ بى :

— لقد عرفت ، آه أيها اللص ! إنكما تسرقان من القصر. سأريك أنت وهذا الخادم الخائن. ماجزاء من يسرق مولانا الملك ورفعت رأسى. فوجدته فى الشباك

فهمست به أن أدخل ، ادخل يا مغفل

فانتبه الشرطى ، ورفع رأسه . فلما رأى عبدالله بهت حتى صارت عيناه فى رأسه ، وفتح فمه من الدهشة ، ثم رفع يده بالتحية العسكرية بعنف وشدة حتى مال به الزورق ، ووقف ينتظر

— فقال له : ماذا تريدون من صديقى : دعه واذهب

فعاد إلى التحية ، وأقبل علىّ يعتذر ويقبل يدى ويسألنى العفو عنه

— فقلت له وقد تأثرت لمشهد تذلله : اذهب يا بنى اذهب ، الله يسامحك !

فذهب المسكين وهو لا يصدق بالنجاة ، ووقفت حائراً لا أفهم من ذلك شيئاً ، حتى أخرج صديقى رأسه ، فقلت له :

— إيش هذا يا عبد الله ؟ إيش لون صرفته ؟ لقد خاف منك كأنك الملك

— قال : هذا من فضل الله

— قلت : ولكنه يريد أن يسوقك إلى السجن إنى أخشى عليك

— قال : لا . لا تخف !

وعدنا نتسامر ...

* * *

وكنت يوماً أسير فى شارع الرشيد ، وإذا أنا بصديقى عبد الله يسير وحده ، ففرحت بلقائه وهرعت إليه فحييته وسألته إلى أين يمشى ، فقال بأنه يريد الباب الشرقي . قلت : ولم تمشى ؟ اركب (باصاً) . إذا لم يكن معك فلوس ، فخذ منى ، معى بحمد الله

فضحك وقال لى إنى أريد الرياضة . ولقد كانت

معى سيارة أسوقها بنفسى ، فأصابها عطل عند (رأس القرية) فتركتها وسرت

— قلت : ألا تخاف أن يسرقها أحد ؟

— قال : لا . إن الشعب يحبنى كما أحبه

إي والله ، لقد كان الشعب يحبه ، وكيف لا يحبه وقد أنشأ له ملكاً ، وأقام له دولة ، وجعل له في الممالك المستقلة ذكراً ، رحمه الله . رحمه الله ...

— قلنا : ذلك هو الملك فيصل

— قال : وعمن إذن أحدثكم ! لقد كان الملك نفسه ، ولكني — لغباوتى وغلاظ قلبى — لم أعرفه . أو هل سمعتم بملك يكون مع مثلى فلا يشعره أنه فوقه ، وإنما يستدين منه فلساً ويعطيه ديناراً ، ثم يكون مع الملوك فيشعرون من أنفسهم أنه فوقهم ؟ رحمه الله ، رحمه الله !

سرت معه فى الشارع ، فما راعنا إلا الناس ، ينظرون إليه بعيون تفيض بالحب والاكبار ، ثم يحيونه ويفتحون له الطريق ويمشون خلفه وينظرون إلى فيعجبون منى ، إذ أتكئ على ساعد الملك . إنه يسندنى ويعيننى لأنى شيخ كبير لا أطيق المشى ...

فلما بلغنا الباب الشرقي رأيت الجند قد وقفوا التحيته وصاح صائحهم بسلام الملك ، هنالك هوت رجلاى فلم تطيقا حملى ...

— قلنا : ثم ماذا ؟

— قال : لقد بقى يحدثنى من شبابه ، ولكنى لم أنتفع من نفسى بحديث ، إنى عرفت أنه الملك !

واغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، فترك الزورق يمشى مع الماء ، ساكناً هادئاً ، وكان الليل قد غمر النهر والشاطئين بسواده الفاحم ، وطفق يقول همساً ، كأنما يناجى نفسه :

— رحمه الله ، رحمه الله ، ذلك هو الملك العظيم !

على الطنطاوى

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى : الحاج شلبى . الاطلال أبو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر فى نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا